

أبو سلمى شاعراً ملتزماً، ومعنى الشعر لديهِ

فاروق مواسي

يظل شعر أبي سلمى الملتزم لقضيته الفلسطينية، والرافض للظلم المحيق بشعبه أبرز أو أشهر ما في كتابته، وقصيدته إلى ملوك العرب- "انشر على لهب القصيد" كانت علامة فارقة في شعره، لما فيها من نقمة عارمة على الخنوع العربي الذي تمثل بموقف الملوك العرب بعد ثورة سنة 1936، فقد ذكر لنا الشاعر أن هذه القصيدة كتبت بعد البيان الذي أصدره الحكام العرب، يعلنون فيه إلقاء السلاح اعتماداً على حسن نوايا حليفهم بريطانيا¹.

تشير هذه القصيدة إلى روحه العارمة، التي تنطلق من فهم ملتزم، يساري، حيث طالعنا

¹ - أبو سلمى. ديوان أبي سلمى. بيروت: دار العودة، ص 20؛ وانظر كذلك - خلف، علي حسن. (إعداد). أبو سلمى - زيتونة فلسطين. عكا: منشورات الأسوار، د. ت. ص 121، 136. وفي حوار مع أبي سلمى أجراه يحيى يخلف يقول الشاعر: "لقد أجهضوا الثورة بإصدار بيان الملوك العرب دون أن تحقق أهدافها، عند ذلك كتبت قصيدة (إلى ملوك العرب) - انظر: شلحت، أنطون. أبو سلمى - الرمز والقصيدة. دار أبو سلمى، 1982، ص 108. مع ذلك فقد يكون ما أورده الباحث عبد الرحمن ياغي مجالاً للنظر، وهو- "أن القصيدة كتبت بعد مصرع فرحان السعدي الذي حكمت عليه سلطات الانتداب بالإعدام رغم تجاوزه السبعين من عمره، وقد أرادها أن تكون مقدمة أو خاتمة لملمحة شعرية ذكر أنه ينشئها عن الثورة الفلسطينية". (ياغي، عبد الرحمن. الأدب الفلسطيني الحديث. القاهرة: دار الكاتب العربي، 1969، ص 28). وقد سبق أن نشر ذلك في كتابه حياة الأدب الفلسطيني، بيروت: المكتب التجاري للطباعة، د. ت، ص 241. يذكر أن فرحان السعدي نفذ فيه الإعدام في 1937/11/27، وهو أوائل من أطلقوا الرصاص في ثورة سنة 1936. انظر:

<http://www.ebnmasr.net/forum/t39551.html>. وإذا قبلنا قول الشاعر بأنه كتب قصيدته مباشرة بعد تصريحات الملوك العرب الداعية لإلقاء السلاح، فمعنى ذلك أن الأبيات المتعلقة بفرحان السعدي أضيفت فيما بعد.

في سيرته أنه كان مقرَّباً من التنظيمات الشيوعية،² وما لبث أن انضم لنشاطات عصبة التحرر الوطني،³ لذا رأينا اللون الأحمر، وهو رمز العلم الشيوعي- بارزاً في نصوصه الشعرية،⁴ ففي قصيدته التي ذكرتها يقول:

المجد أن يحمي الرصاص على المدى حمراً البنود⁵

.....

والثورة الحمراء نطمعها الجسد مع الكبود

والدعوة إلى الحرية والنضال، والكفاح والثورة هي من مفردات الفكر الشيوعي:

حريّة الإنسان بالدم تشترى لا بالوعود

.....

يا من يعزون الحمى ثوروا على الظلم المبيد

بل حرروه من الملوّك وحرروه من العبيد

ثم إن توجيهه الخطاب إلى (الرفاق) والحديث عنهم، من دلائل هذا التوجه اليساري، نحو:

² - يرى إبراهيم عبد الستار في كتابه شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية، حيفا: نادي الإخاء، د.ت، ص 40: "وشاعر الهوى والأحلام إنساني النزعة / اشتراكي المبدأ.....إلا أنه يمتاز بزغته التحررية ومذهبه التقدمي".

³ - خاطب الشاعر في قصيدة له عصبة الأحرار (ديوان أبي سلمى، ص 27)، ويقول إميل حبيبي: "ما من مهرجان شعبي عقدته عصبة التحرر الوطني أو مؤتمر العمال العرب في فلسطين من القدس حتى حيفا ومن الناصرة حتى أسدود إلا ووقف فيه أبو سلمى شاعراً وخطيباً يعتز بشعبه ويعتز به" (انظر: شلحت، أنطون. أبو سلمى الرمز والقصيدة، ص 27). وفي شهادة للشاعر حنا أبو حنا ذكر لي (في حديث هاتفي يوم 2010/12/30) أن أبا سلمى لم يكن عضواً رسمياً في العصبة، بل كان مؤيداً لها.

⁴ - انظر: تحية حمراء- ص 14، آفاقك الأحمر- ص 17، خطى حمراء- ص 28، الثورة الحمراء خير مرشد - ص 27، راياتنا الأحمر- 50 وغير ذلك كثير.

⁵ - أبو سلمى: الديوان، ص 24-25.

قم وناد الرفاق من كل لون
بل رفاق الآلام والدم والدمع
لا رفاق الأحساب والأنساب
مع رفاق الضنى رفاق العذاب⁶

يضاف إلى ذلك تعابير "المطارق والمناجل"، "يساريون"، "التحرر"، "الحرية"، وكذلك الإيمان
بخطمية الانتصار أو رؤية الضوء في نهاية النفق المظلم.⁷ وسأذكر نموذجًا:

أهلاً بعمال البلاد
حمر الصحائف سطروها
يحاربون من استبدا⁸
باللظى بندا فبندا
الفجر خلف ركايم يهدي الورى
والركب أهدى
قالوا يساريون قلت أجلمهم
عملاً ومبدا
وطن على أيديهم يجني
مع الأيام سعدا
لم يعرفوا كيف المبادئ تشتري
عدًا ونقدا
هذي المطارق والمناجل تحصد
الظلام حصدا
وتحرر الإنسان حتى لا ترى
في الكون عبدا⁹

⁶ - ديوان أبي سلمى، ص 62، ونماذج أخرى ص 27. وكذلك رثاء الكاتب الشيعي عمر الفاخوري بعنوان
"رفيق التاريخ، ص 60، وهو يخاطبه: "يا رفيق التاريخ والثورة الحمراء من للخصوم والأصحاب".

⁷ - انظر قصيدة "مرحبًا بالرفاق" التي نشرت في صحيفة الاتحاد (1946/5/19) ففيها تعابير: الرفاق،
الثورة، الاعتناق، حرية الشعوب، حمر الفعال، الثائرون، جمعتنا مبادئ، وكذلك قصيدته التي ألفها
في مؤتمر العمال بيافا وأعدت نشرها الاتحاد (1947/9/12)

⁸ - للشاعر قصيدة عن أول أيار، انظر: بيلتو، عادة. الديوان الآخر لأبي سلمى. دمشق، دار طلاس، ص
118، وكانت الاتحاد قد نشرتها في أيار 1947، وتقول بيلتو إن الشاعر نشر عددًا من أبياتها في ديوانه
المشرد بعنوان "نسور الديار"، ص 38-40، في دمشق سنة 1963، لكني لم أجد النص في طبعة دار
العودة لديوان أبي سلمى، ولا ضمن القصائد المتفرقة التي أضافتها عادة بيلتو تحت عنوان "القصائد
المتفرقة"، ولم تنشر في ديوانه الكامل- الديوان الآخر لأبي سلمى، ص 170.

⁹ - ديوان أبي سلمى، ص 56.

وفي مكان آخر:¹⁰

تعيش في أوطانها حرة ولا ترى الأبيض والأسودا
الناس إخوان على أرضها لا تعرف العبد ولا السيدا
العالم الحر لنا موطن يا موطن الأحرار نحن الفدا

ثم إن نشر الشاعر المتواصل في صحيفتي الحزب- الاتحاد والغد يشير بوضوح إلى التزامه الحزبي، فقصيدة -إلى ملوك العرب- لم تجرؤ أية صحيفة فلسطينية على نشرها، فقام الشيوعيون بنشرها في مناشيرهم السرية".¹¹

يقول إميل حبيبي: "كما تفخر الاتحاد أن جميع قصائد أبي سلمى منذ العام 1944 قد خص بها هذه الصحيفة التي اعتبرها دائمًا وحتى أيامه الأخيرة صحيفته ومحبوبته".¹² يحدثنا أبو سلمى في حوار أجراه معه يحيى يخلف عن جمعية "عصبة القلم" في القدس، فيقول:

"كان من أعضاء الجمعية رثيف خوري، خليل البديري، عارف العزوني، أبو سلمى، رجا حوراني، وقد ساهمت هذه الجمعية في نشر الثقافة التقدمية".¹³

¹⁰ - ن.م، ص 66.

¹¹ - شلحت، أنطون. "كلمات إميل حبيبي". أبو سلمى الرمز، ص 27.

¹² - ن.م، ومن خلال متابعتي لما نشره أبو سلمى في صحيفة فلسطين - التي كان ينشر فيها بدءًا من سنة 1932 وحتى سنة 1943- فقد وجدت نحو عشرين نصًّا، ثم وجدت نصوصًا أخرى في الصحيفة نفسها بدءًا من سنة 1953 وحتى 1964، من هنا فقد صدق حبيبي في دعواه، ولم أجد شعرًا لأبي سلمى في صحيفة فلسطين إلا قبل سنة 1944، أو بعد سنة 1953.

¹³ - انظر الحوار في عدد مجلة الكاتب الفلسطينية، شباط 1978. يعلق حنا أبو حنا على هذه الجمعية بأن رثيف خوري "كان معروفًا بعقيدته الماركسية والدعوة إليها، وكذلك الدكتور البديري الذي ظل مواليًا لتلك العقيدة إلى آخر عمره، وكذلك بقية الأعضاء [...] من هنا جذور الرؤية السياسية عند أبي سلمى وتأييده لعصبة التحرر الوطني" انظر، أبو حنا، حنا. ثلاثة شعراء. الناصرة: منشورات مجلة مواقف، 1995، ص 186.

لعل السبب الذي دعا أبا سلمى إلى تأييد الشيوعية بالإضافة إلى هذه الرفقة اليسارية ما دعت إليه الأحوال السياسية وتآلق نجم الاتحاد السوفييتي في مقارنته الاستعمار، كما أن الظروف الاجتماعية والفقر الذي كان سائدًا بين جموع العمال والفلاحين كان لها أثرها في أن يناضل معهم ولهم، وأن تدعوه إلى درب اليسار:¹⁴

يا أيها الشعب النبيل	أمنت من شر العثار
أنت الذي تهدي السبيل	من اليمين إلى اليسار
قرر مصيرك أنت لا	من يبصمون على القرار
يا عصابة الأحرار	إن الحق من نور و نار

غير أن أبا سلمى بعد النكبة وبعد رحيله إلى دمشق ابتعد عن النشاط اليساري بالمفهوم الشيوعي، ولم نجد له قصيدة واحدة تظهر ميوله التي ذكرناها، بل كان ملتزمًا بنوع آخر من الالتزام- ملتزمًا لعرويته ولوطنه فلسطين، فقصائده أخذت تدعو إلى الوحدة العربية، وإلى إبراز الهم الفلسطيني، وإلى تدمره من سوء معاملة الأخوة العرب للفلسطينيين:

ما لنا اليوم لا نعد من العرب	وغاب التأهيل والتوديع
أنكرتنا السماء والأرض والأهل	فهل هكذا يكون الصنيع
وترامت أشلاؤنا داميات	وحلا للأحبة التقطيع ¹⁵

ويقول:

سجنوا اللاجئين لما رأوهم	لا يزالون يطلبون الحساما
ظلموهم فكيف يغفون يومًا	وفلسطين تقرع الأبواب ¹⁶

¹⁴ - ديوان أبي سلمى، ص 48.

¹⁵ - ن. م، ص 276.

¹⁶ - ن. م، ص 237، وانظر كذلك ص 243 حيث يقول: وعدا أهلي على أهلي ذئابا، سجنوا أهلي.....

كان من الطبيعي إزاء هذه "الملاحظات" أن يغير الشاعر هنا وهناك بما يتوافق والجو السياسي السائد، فقد لاحظنا - مثلاً- أن الشاعر في طباعته لديوان المشرد أجرى تغييرات على قصائده الأولى، وليس أدل على ذلك من التغيير الذي جرى على قصيدة "مؤتمر العمال في يافا"- ديوان أبي سلمى، ص 56 (نشرت القصيدة قبل ذلك في ديوان المشرد (ص 30-32)، وحسبنا أن نلاحظ البيت: "قالوا شيوعيون¹⁷ قلت أجلهم عملا ومبدا...."، إذ حذف البيت من ديوان المشرد الصادر في دمشق سنة 1963، فإذا بهذا البيت يتغير في طبعة دار العودة لديوان أبي سلمى، بمعنى جديد:

"قالوا يساريون قلت أجلهم عملاً ومبدا"¹⁸

تبعًا لتغيير الموقع، وبسبب الظروف الجديدة ومتطلباتها غدت مصطلحات "الأحمر"، "الثورة"، و"الرفاق" تحمل دلالاتها المباشرة، فالأحمر - مثلاً- يرتبط بالدم لا بالعلم الشيوعي، فهي هو يخاطب الثوار الجزائريين:

يا رفاقي المرابطين تهاديتم
نجومًا تضيء للأباد
يا رفاقي الذين زنتم شباب
الخلد كنتم طلائع استشهاد¹⁹

ويقول:

يا رفاق الفكر أعيانا السرى
وطويناها دروبًا وبطاحا
فاجعلوا في الغوطتين الملتقى
واركزوا فوق الذرى الشم الرماحا²⁰

¹⁷ - هكذا سمعتها عشرات المرات في اجتماعات الحزب الشيوعي، كما سمعتها على لسان حنا أبو حنا، وسجلها أيضًا معين بسيسو في تأبينه لأبي سلمى، انظر شلحت، أنطون. أبو سلمى الرمز والقصيدة، ص 48.

¹⁸ - ملاحظة تغييرات أو تعديلات أخرى راجع: جبران، سليمان. نظرة جديدة على الشعر الفلسطيني في عهد الانتداب. حيفا: سلسلة منشورات الكرمل، 2006، ص 125.

¹⁹ - ديوان أبي سلمى، ص 222.

²⁰ - ن.م، ص 227.

ثم ما يلبث أن يقول:

هذه الحرية الحمراء ما عرفت إلا فلسطين مراحا

وبالطبع فإن المعاني لا تشي بالفكر الشيوعي ومصطلحاته، بل هي ألفاظ ردد مثلها أيضًا في
رثائه الوطني السوري صبري العسلي الذي حارب الفرنسيين:

من يعزي الساح من بعدكم والسيوف الحمر والخيل العرابا
كيف تنسى الثورة الحمراء من قدموا أرواحهم فيها احتسابا
يا فتى الثورة خضبت الصبا بالبطولات فأغليت الخضابا²¹

انتقل الشاعر للتغني بالعروبة، لكنه كان دائمًا يذكر بفلسطين، ويرى أن تحرير العرب لا
يتم إلا بتحرير وطنه:

من حمانا العروبة انطلقت في الشرق نشوى فكيف ينكر لاح
كل شبر من أرضنا نحن رويناه بالدمع والدم المنساح
ليت شعري هل تنبت الخطوات الحمر أغراس عزة وطماح²²

ويبدو أن سياسة شعره لم تكن تخرج عن سياسة الحكام في دمشق، ولم يجد الشاعر
الراحة مع السلطات السورية، خاصة في السنوات الأولى من إقامته، فقد اعترف أبو سلمى
في لقاء جرى مع سالم جبران في صوفيا بما يلي: " تصوروا من سنة 1948 حتى 1953 لم
أتمكن من الحصول على باسبورت سوري. لماذا؟ لم يكن بالإمكان أن أترك سوريا. ملفي في
المخابرات السورية، وفيه نسخة من قصيدة (انشر على لهب القصيد) مكتوب بجانيها: عبد
الكريم الكرمي فلسطيني، معاد للأمة العربية جمعاء... الآن رغم كل شيء... عندما يطلب

²¹ - ن.م، ص 370.

²² - ن.م، ص 258.

مني أي مسؤول عربي أمراً أجيبه على الفور- علي أن أتشاور مع حكومة بلادي مفسراً
القصيد- منظمة التحرير الفلسطينية".²³

ويبدو أن فترة ركود كانت قد سادت في الحركة القومية الفلسطينية،²⁴ الأمر الذي قلل من
مجاهدات الشاعر، فجعلته يتجه إلى التقرب أكثر من السلطة القائمة، فقرأنا له امتداداً
لدمشق وسورية:

حملت دمشق رسالة العرب	أموية الأعطاف والنسب
شاب الزمان على مشارفها	ودمشق في الربيعان لم تشب
قد جمل التاريخ غرتها	فسمت على أتراجها العرب ²⁵

بل إنه يورد فكرة "سورية الكبرى" التي كثيراً ما تتردد في أدبيات حزب البعث والإعلام
السوري، ملمحاً إلى أن فلسطين هي جزء من سورية:

²³ - انظر مقالة سالم جبران في تأبين الشاعر: شلحت، أنطون. أبو سلمى - الرمز والقصيدة. ص 44.

وقد ذكر القصة كذلك فياض فياض في كلمته التأبينية (ن.م)، ص 82.

يذكر فوزي عبد الله في دراسة له عن أبي سلمى أنه كان هناك تعميم إعلامي على الشاعر، فهو يقول
"إن الإعلام السوري اعتبره عدو الأمة العربية رقم واحد"، أي أنه اقتبس اعتراف أبي سلمى، وكان من
نتائج ذلك -في رأيه- "التعميم على قصائد هذا الفائز التي تُعدي الجماهير فتحولها إلى غاضبة تائرة على
ظلامها وفي مقدمتهم زعماء العالم العربي"، لذلك يرى أن شعره لم يكن ينشر في الصحافة المحلية
(الشيوعية- ف) جرياً على هذا التعميم المقصود، انظر: المواكب. لهب القصيدة. الناصرة: مطبعة
النهضة، 1984، ص 40-41. ولدى مراجعتي في أعداد مجلة الجديد لاحظت أن المجلة أفردت صفحة
للتعريف بالشاعر الفقيه حديثاً (الجديد، العددان 9-10، 1980)، ولم أجد في الأعداد السابقة
واللاحقة أية دراسة عنه، أو أي قصيدة أعيد نشرها له، وبالطبع فربما يكون السبب أن الشاعر لم
يكن ينشر قصائده في الصحف، أو أن ما كان ينشره لم يكن يصل إلينا.

²⁴ - تحدث إميل توما عن هذه الفترة في كلمته التأبينية لأبي سلمى، انظر: شلحت، أنطون. أبو سلمى-

الرمز والقصيدة، ص 37.

²⁵ - ديوان أبي سلمى، قصيدة دمشق، ص 284.

فمتى تمد الشام أجنحة
هذه الجناح يموج في حلب
ومتى تعيد الشام سيرتها
ومتى يطل الفجر مؤتلقاً
وترى بلاد النور عن كذب
هذي فلسطين العروبة
وترف فوق ربوعنا الخضب
وجناحها الثاني على النقب
ومتى تمزق حالك الحجب
وترى بلاد النور عن كذب
في تحريرها حربة العرب²⁶

وسواء كان الشاعر ينطلق من مفهوم ماركسي أو قومي فقد ظل ملتزماً بغني لوطنه، وكان يرى أن الشعر يجب أن يكون متفاعلاً مع الوطن، فهذا هو يتساءل:

"أي قيمة للشاعر إذا كان لا يجلو شعره صور وطنه الجريح؟"

أي قيمة للشاعر إذا لم يكن فرداً من مجتمعه، يضيء في شعره كفاح شعبه وجهد فلاحيه وعماله ومآسي مشرديه وآمال لاجئيه؟

أي قيمة للشاعر إذا كان الشاعر لا يصف صبايا الحي، وقد حملن سمرة التربة الفلسطينية وتأود ربحاننا... وما أغلى الشعر الذي تترقرق به دموع الأيتام ودماء الشهداء وعرق المجاهدين!

إن الشاعر هو خاطرة شعبه، ورائد أهله، والرائد لا يكذب أهله، ويخوض معهم معركة الحياة، يهدر دمه قبل أن تُهدر كلمته، يدافع بالكلمة المقاتلة عن الحرية والوطن والشعب... من تلال فلسطين نرى الكون، من سماء فلسطين ونجومها نتعرف إلى نجوم كل السماوات، من عيون أطفالنا المشردين نتطلع إلى عيون أطفال العالم، ومن دماء شهدائنا تتدفق شلالات الأنهار تنصب في انهار دماء كل شهداء الحرية. وحينما ترتفع يد الإنسان الفلسطيني للدفاع عن حقه إنما تصافح يد كل إنسان في الدنيا يدافع عن الحق، وفي

أغاني قريتنا تتلاقى أغاني وأهازيج كل قرى العالم، والشعر الفلسطيني من أجل ذلك... تتجاوب فيه أنغام الشعر القومي والعالمي".²⁷

من خلال هذا التوصيف عن علاقة الشعر بالواقع نخلص إلى ما يلي:

1. أنه شاعر ملتزم طرح رؤية واضحة المعالم لها بعد وطني إنساني، وهو يذكر ألفاظ - العمال والأطفال والشعب، وهي من التعبيرات المستجدة في قاموس الشعر العربي.
2. أنه شاعر يبحث عن سعادة الإنسان- هذا الإنسان الذي يعاني من الدم والدموع والعرق.

3. أنه من الشعراء الفلسطينيين القلائل الذين نظروا بعين الرؤية الإنسانية- التي تتجه إلى مفهوم الشمولية أو الكونية:

"من تلال فلسطين نرى الكون، من عيون أطفالنا المشردين نتطلع إلى عيون أطفال العالم."
4. أنه من الشعراء القلائل الذين ربطوا بين الفرد والمجتمع، والشاعر هو الفرد الرائد، الملتزم الذي له وظيفة ودور، هو المعبر إلى الإنسانية، والمعبر عن آلام الجماهير وآمالها، إنه ابن الحرية والوطن والشعب- هذا الثالوث المقدس.

5. أنه من أوائل الشعراء الذي نظر إلى هذا المزج بين الأرض والحببية:

"أي قيمة للشعراء إذا كان الشاعر لا يصف صبايا العبي وقد حملن سمرة التربة الفلسطينية وتأود ريحاننا؟"، وهذا القول يعكس عملياً المزج بين الأرض والحببية في عدد من قصائده، فإذا ما تحدث عن حبيبته جعل الوطن بعضاً من نسيج حبه:

سأل الفجر: أين خولة فانهلت	طيوبٌ، وتمتمت كيف تسأل؟
هي في كل زهرة في بلادي	عبقٌ في صميمنا يتغلغل
إنها من مروج عكاء والرملة	واللبد نشوةً تنقل
من كروم الجليل خميرة الأنداء	نشوى ومن كروم المجدل

27 - خلف، علي حسن (إعداد). أبو سلمى زيتونة فلسطين، عكا: منشورات الأسوار، د.ت. ص 32.

ورغم الزمان لم يتبدل
وأه على الثرى لو يُقبَّل
فيها ومن شعاف القسطل

عطرها مذ كان أنفاس بيسان
حفنة الطيب من ثرى الوطن الغالي
خطرت والشموخ من جبل الجرمق

.....

بأشهى ولا الصباح بأجمل
وساكب النور يخجل
ومن خلف ثغرها ألف مهمل

أقبلت لا الربيعُ أحلى ولا الخمر
إنها أشهبية وتغار الشهب منها
ألف نجم يضيء من خلف عينيها

.....

ضياءً من السماء تنزل
وشباب وبين مجد مؤئل²⁸

كيف لا؟ بعدما جلتها فلسطين
وتهادت ما بين شوق وعطر

فلقاؤه مع الحبيبة يجعل منه جولة في ربوع الوطن وعشقاً له لا أقل:

لم تشع عيناك ولم تشفقي
من ربوات القدس والجرمق
ننشر من أنفاسنا ما بقي
على رمال الشاطئ الأزرق²⁹

سنلتقي في الشعر لولاه
وفي النسيمات التي شردت
سنلتقي ما فوق أرض الحمى
في الكرمل المحزون بعد النوى

إنه يحب حبيبته ولن ينساها، ولماذا فالإجابة حاصلة:

أحبت فيك الشعب والموطنا
كأنها تعرف ما بيننا
هذا الربيع الطلق إلنا³⁰

وكيف أنساك وأنت التي
.... وتهمس الأزهار عند اللقاء
الجنة الخضراء ما شادها

28 - ديوان أبي سلمى، ص 293.

29 - ديوان أبي سلمى، ص 185-186.

30 - ن.م، ص 184. وحتى قصيدته الغزلية "الثوب الأزرق" يمكن أن نجد فيها بعداً وطنياً:

يا من غفا النجم على صدرها وظلّ وهو حالم يخفق

ويسأل الشاعر حبيبته:

هل سرقت الفتون من قسمات
لست أدري أجملتك بلادي
القدس أو فجرها الحبيب الأشقر
أم تمثلت أنت في كل منظر³¹

فما أروع طلة الفجر من عيني حبيبته، ففهما يتجلى الوطن:

أرى فيهما خيال اللد والكرمل والرمله
أرى في أفقها وطني فأطبعه على قبله
وموج الشاطئ الغربي في عكا أرى ظله
لقد حملت لي العينان ما لم أستطع حمله³²

ومن جهة أخرى إذا تحدث عن الوطن أفيته وكأنه يتلمسها معشوقة حبيبة:³³

كلما حاربت من أجلك أحبيتك أكثر
لم أزل أقرأ في عينيك أنشودة عبقر
تشهد السمرة في خديك أن الحسن أسمر
وعلى شطيمها أمواج عكا تتكسر

...

أمن سماء الحب أم موطني بالله قولي ثوبك الأزرق

(بيلتو. الديوان الآخر، ص 173).

³¹ - ن.م، ص 165. يذكرنا البيت الثاني ببيت كثبّر عزة وهو يرى كل مكان وقد انطبعت فيه صورة عزة:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لي ليلي بكل سبيل

وقول جميل بثينة في عجز البيت: تمثل لي ليلي على كل مرقب.

³² - ن.م، ص 247. في هذا السياق حري أن أذكر أن ناظم حكمت سبق أن جعل هذا المزج بين الحبيبة

والوطن، وأذكر من ذلك قصيدة له يقول فيها: "كم أنت جميلة يا إلهي، كم انت جميله/ ففي ابتسامتك
هواء إستنبول وماؤها/ وفي نظرتك صبايات مدينتي/ إيه يا سلطانتني يا مولاتي / لو أنك سمحت ولو
تجرأ عبدك ناظم/ فسيكون كمن يتنشق ويقبل إستنبول على خدك"، مينه، حنا. ناظم حكمت -
السجن. المرأة. الحياة. بيروت: دار الآداب، ط 3- 1983، ص 66.

³³ - سبق أن أشار ناصر الدين الأسد إلى هذا التفاعل: "هذا التفاعل المتداخل المتجاوب في نفس شاعرنا

ووجدانه بين حبه لفتاته وحبه لوطنه، فكل ما يذّكره به يذّكره بها، وكل جمال فيها جمال فيه...، ولذلك
لا عجب أن تكون قصيدته غزلية وطنية معا"- الأسد، ناصر الدين. الحياة الأدبية الحديثة في
فلسطين والأردن. القاهرة: جامعة الدول العربية، 1961، ص 222.

يا فلسطين ولا أعلى ولا أحلى وأطهر كلما حاربت من أجلك أحببتك أكثر³⁴

إن الذات الشاعرة المحبة تتمازج مع تفاصيل الوطن، فالريشة (كناية أو رمز، وقد يكون ذلك بسبب علاقة الريشة بالنسر) من فلسطين الحبيبة³⁵، والقوافي هي من أشداء برتقال يافا، ومعانيها من سهل طولكرم حيث ولد الشاعر:

من فلسطين ريشتي ومن الرملة	واللد صغت حمر الأغاني
من شذا برتقال يافا قوافيها	ومن سهل طولكرم المعاني
أحرفي من قطاع غزة والشاطئ	تمشي مصبوغة الأردن
من فلسطين ريشتي وجناحها	إلى عالم الجوى الضفتان
ومن الأردن الحبيب أرومها	لتندى شجيرة الألمان

من هذه الرؤية للوطن كانت كلمات الشاعر محمود درويش يوم أن كرموا أبا سلمي لحصوله على جائزة اللوتس:

"أعطني يدك لأرى البيدر الذي كنت ألعب فيه ... فيا أيها المسك بناصية الذاكرة بيد، وبذراع المستقبل بيد، أعطني يدك لأهزها فتساقط مدناً وموانئ وقمحاً وصيادي أسماك لأرى خارطة الوطن العربي الجديد".³⁶

وفي تقديري أن كلمات درويش هي تلخيص لهذه العناصر الخمسة التي أشرت إليها:

³⁴ - ن.م، ص 299.

³⁵ - يقول الشاعر في قصيدته "النسر العربي":

يا أيها النسر انطلق في الذرا	أضئ دروب النجم بالمشعل
واكتب بريش من جناحك	في تاريخنا عن ثورة الجحفل
وثورة الشعب التي أطلعت	من نارها أنوار مستقبل

(ن.م، ص 331).

³⁶ - خلف، علي. أبو سلمى، ص 29-30.

فهنا الرؤية الإنسانية الواضحة، وهنا المزج بين الإنسان والأرض، وهنا ما تحمله ناصية الذاكرة من الماضي المشيع بالدم والدموع والعرق، وهنا ذراع المستقبل الذي يسمق كالنخلة تساقط رطبًا جنياً، ولكل الكون مدناً وقمحاً... وهنا الشاعر أبو سلمى في خدمة الجمع حيث نراه رائدًا، والرائد لا يكذب أهله.³⁷

هذا هو دور الشاعر كما تصوره أبو سلمى، وهذه هي رسالته.

يقول أبو سلمى في موضع آخر:

"نحن الشعراء الفلسطينيين نشأنا غراسًا في فلسطين، عربية التربة والجذور، إنسانية الأغصان والظلال، وعندما نخوض مع شعبنا العربي الفلسطيني معركة الحياة والحرية والخبز، إنما نخوض هذه المعارك مع شعوب الدنيا كلها، وعندما نحارب الاستعمار والصهيونية والظلم والجهل والقهر فإنما نحارب هذه الأوبئة في كل مكان"³⁸.

هذا الموقف من شعره أعلاه- سجله أيضًا شعرًا في قصائده المتفرقة دالًا بذلك على موقفه الملتزم بقضيته وبشعبه:

أجل هو الشعر يعلو وجهه الخجل	فكيف لا تخجل الأحرار والمثل
هل يزدهي الشعر في سوق الرقيق إذا	رقت عليه الحلى والوشى والحلل
ما الشعر إلا وشاح النور جتّحه	على المدى ألم في الشعب أو أمل
ما الشعر إن لم يلح فيه سنا وطن	ولم يعطره منه السهل والجبل ³⁹

الشعر إذن لا يكون إلا إذا ارتبط بالأم الشعب وبأماله، ويجب أن يكون الوطن متجليًا فيه، ثم ما يلبث أن يؤكد في بيت آخر أن جهاد الشعوب هو الذي يخلد الشعر:

³⁷ - مثل قائلته العرب، ويعني أن الرائد هو الذي يتقدم القوم لطلب الماء والكأ لهم، فإن كذبهم أفسد أمرهم، وأمر نفسه معهم.

³⁸ - خلف، علي. أبو سلمى زيتونة فلسطين. هذه الروح وهذه الكلمات يعبر عنها في ص 130، ص 156، ص 160، 172.

³⁹ - ديوان أبي سلمى، ص 215.

أي شعر هذا الذي لم يخلده جهاد الشعوب في كل ساح⁴⁰

فالشعر يرتبط بمشاعر الناس، يجسد أمني فلسطين، وإلا فهو تافه لا يحمل قيمة، فحرارته تستمد من حرارة الواقع، وشرفه أن يزود عن الحق، فهذا هو دوره، وكما أن الناس منهم الحر ومنهم الذليل فهكذا حال الشعر، فبعضه يرقى إلى الكرامة، وبعضه الآخر يتمرغ في الخواء. يقول الشاعر:

يخجل الشعر حين يغفو على الأعتاب
هو إن لم يحشد أمني فلسطين
كل حرف حريضيء طريق
وهج الشعر حرقلة والتجاع
لا كان إن عداه الشعور
وألما لقي وقشور
الشعب كالسيف للجهاد يشير
ليس فيه مذهبٌ وحرير⁴¹

ويقول:

إنه الشعر كالأناسي في الكون
شرف الحرف أن يزود عن
وأضيئوا باللظى ليث النور
فحرف حرٌّ وحرف ذليل
الحق، فإن رمت المقال فقولوا
فالليل عالم مجهول⁴²

الشاعر إذن ملتزم، ويدل على التزامه ما ذكره نثرًا وشعرًا بضرورة الالتحام بوطنه وبشعبه، وبضرورة مقارعة الظلم وما يكيدون له ولوجوده، فهو عاشق الوطن، ينطلق من ذاته ليعانق حبيبته فيرى الوطن فيها، ويخاطب وطنه وكأنه يخاطب حبيبته التي يهوى، لذا فإن التضحية ومفرداتها كانت مفتاحًا في نصوصه لهذا الالتزام، ولهذي المشاعر الجياشة في

⁴⁰ - ن.م، ص 258. وبالطبع فالشاعر في قصائده الغزلية له موقف آخر، فهو يقول:

ما الشعر لولاك والأغاني عيناك عندي بألف شاعر

(بيلتو. الديوان الآخر، ص 59). ويقول: أنت لولاك ما الحياة وما الشعر وما الغنا (ن.م، ص 67).

⁴¹ - ن.م، ص 303.

⁴² - ن.م، ص 286.

الذود عن وطنه، فما أكثر ألفاظ التضحية والدماء، والتحدي، والشهادة، والخلود،
والتطهير بالنار والحرية التي لها ثمن، يقول أبو سلمى:

نحن إذا لم نحترق كيف السنا يملأ الدنيا ويهدي كل ركب
والدم الحر الذي وحدنا خلد التاريخ في أروع كتب⁴³

ونلاحظ في بيان الشاعر أنه أغفل ذكر المفردة ووظيفتها الشعرية شكلاً، فهو يجعل
المضمون أولاً وقبلًا. ولكن التزامه أيضًا كان للغة، فهو لا يعدو النهج اللغوي الرصين، الذي
سلكه الشعراء القدامى، ويعتمد إلى المتح من التراث، لا لسبب إلا لأنه يتصل بتاريخ قومه
وبأدبه، ونسوق مثلاً من هذا الحفاظ على هذه اللغة الكلاسيكية التي هي معجمية- أي أن
القارئ يضطر في بعضها إلى البحث عنها في المعاجم:

يا بقايا السيوف ماجت بها النار فشعت على السيوف الحداد
من جراحاتكم تفجرت الأضواء فوق السهول والأنجاد⁴⁴

وبالطبع، فالألفاظ في البيتين المذكورين مستقاة من الفصيحة التي عرفها الشعراء
المشهورون في تاريخ الأدب العربي، وحتى في شعره الرومانتي فإنه يحافظ على مثل هذه

⁴³ - ن.م، ص 156، ويبدو أن هناك معنى مشتركاً مع ما نسب إلى ناظم حكمت اليساري التركي، حيث
يقول: "إذا لم أحترق أنا وتحترق أنت فمن ذا الذي ينير الظلمات"، ووردت الفكرة ثانية في شعر أبي
سلمى:

بالوقود الكريم ينتشر النور ولن تهتدي بغير وقود (ن.م، ص 220).

وقد أوردتها في قصيدته المشهورة "انشر على لهب القصيد"، فقال:

ووقودها أهل الكرامة من جحاجة وصيد
يا نار لا تتظلي وتقبلي شرف الوقود

(ن.م، ص 25).

⁴⁴ - ن.م، ص 211

المفردات المعجمية، بل هناك تناصات مع قصص وردت في التراث كقصة جزاء سنمار، وقصة الرجل الذي ذبح الطيروكان يترحم عليه:

درب الصبايا لوتنورته مهوى صبايات وأسرار
....
داري وفي عينيّ بعد النوى ألا ترى خيالها الساري
خضبه الحلم بألوانه فخضبت بالدمع أشعاري
ضحية الحسن وكم فتنة تجني على حسناء معطار
جاز عليها مدع بالهوى جور عدو في الحمى ضار
والشعب كم من حاكم باسمه يظلمه ظلم سنمار
في عينه دمعة باك وفي راحته سكين جزار⁴⁵

إنه التزام من نوع آخر- التزام باللغة وأساليبها، وبالتالي فهي في خدمة المتلقي، ولتوصيل الرسالة إليه. وحتى في قصيدته المشهورة "انشر على لهب القصيد" استخدم الشاعر الأسلوب الخطابي: انشر، عرج، واعطف، وفي ذلك دعوة حميمة صادقة، وموقف يريد من المتلقي أن يقفه معه، وبالتالي فهو خطاب لنفسه أيضاً، تماماً كالشاعر الذي يطالب أن يقف السامع على اليرموك، وأن يقرأ السلام وأن يكلمه وأن.... وما هذا الخطاب إلا بوح منه وإليه وإلى سواه.⁴⁶

تتكرر أفعال الأمر في النص، لكنه ما يلبث أن يجعلها بمعنى السخرية والتهكم:

⁴⁵ - ن. م، ص 161.

⁴⁶ - هو أنيس المقدسي في قصيدته على اليرموك:

على اليرموك قف واقرا السلاما وكلمه إذا فهم الكلاما
وقل يا نهر هل هاجتك ذكري شجت قلبي وهيجت الغراما

للتوسع انظر دراستي للقصيدة في كتابي نبض المحار، باقة الغربية: مجمع القاسمي، 2010، ص 411-

اقعد، واحكم، دع سبحة التضليل، واعطف، واندب، خل الخلافة... إلخ وبالطبع فإنه يفتح أبواب الهجاء والشتيمة، وهذه مما تألفه الأذن العربية أيضًا أسوة بالخطابية والمنبرية، فالتعابير "دولة الأصنام"، "مملكة القروذ"، "يعيش في دنيا ثمود"، "لو كان ربي إنجليزيًا"، كلها من هذه التعابير التي تنم عن غضبه ورفضه.

وأخيرًا:

يظل شعر أبي سلمى الملتزم بقضيته الفلسطينية، والرافض للظلم المحيق بشعبه أبرز ما في كتابته، وإذا كان في مراحل الأولى قد اتجه نحو اليسار، بل نحو الشيوعية. حيث تمثل ذلك في تعابير ومفردات حزبية مألوفة، فإنه ما لبث أن جعل التزامه -بعد اغترابه- لفلسطين ولعروبته، فتغيرت مداليل الألفاظ والمفردات، لسبب أو لآخر، وأيًا كان الأمر فالشاعر ملتزم بشعبه ووطنه، وكانت قضيته شغله الشاغل. وقد وقفت على وجوه هذا التحول، وأسبابه، وقدمت نماذج شعرية لأبي سلمى لتوضيح ذلك.

تناولت الدراسة - تبعًا لذلك - تصريحات الشاعر الشعرية والنثرية بما يوافق رؤيته الملتزمة، فركزت على هذا المزج بين الحبيبة والوطن، فإذا ذكر وطنه ألفتيته يستخدم صورًا غزلية، وإذا تغزل بحبيبته رأيت الوطن في نسيج نصه.

أخلص إلى القول إن الشاعر كان كما وصف مجموعته الشعرية التي طبعها دار العودة، فكتب في المقدمة: "إنها أشعار صادقة ملتزمة بقضايا شعبي الفلسطيني والعربي، وهي جزء من تاريخ وطني الدامي"⁴⁷، فقد جعل نفسه ضمن الشعراء الذين هم التزموا بالكلمة الموقف، والتزموا بالقضية والأرض والثورة والشعب.

47 - أبو سلمى. ديوان أبي سلمى، ص 10، وما بعدها.